

خيارات انسانية صعبة



الدكتور لويس حبيقة
خبير اقتصادي

«النيويورك تايمز» في طليعة المبيعات، أنه حتى سنة ١٩٤٥ في الولايات المتحدة كانت أكثرية الوفيات تحصل في المنزل أي تحت رقابة العائلة واهتمامها. أما اليوم، فالوفيات المنزلية لا تتعدى ١٧٪ من المجموع. أي أن أكثرية الوفيات تحصل في المستشفيات ومراكز الرعاية أو في الأماكن المخصصة لاستقبال المسنين وأصحاب الحاجات الخاصة. هذا ينقل الاهتمام بالمسنين من المنزل وأفراد العائلة إلى مراكز العناية والأطباء والمرضى كما المتخصصين في هذا العلم الذي يزداد أهمية في عالمنا المرتكز على العمل الكثير للشباب والنساء لأسباب معيشية ومهنية طبيعية.

لا شك أن الطب الكلاسيكي العادي لم يتأقلم بعد مع واقع الشيخوخة كما يجب. فالطب يركز على تطويل حياة الانسان لتأجيل الوفاة مهما كلف الأمر حتى من عذاب وأوجاع وتكلفة باهظة. فالمتخصصون في طب الشيخوخة وفشل وانما نهاية عادية للحياة على الأرض. وبالتالي النظر إليه بهذا الشكل يغير طبيعة العناية بالمسن في آخر أيام حياته. كل الديانات تؤكد على حق الانسان في العيش النوعي في كل حياته وخاصة في السنوات الأخيرة. ولا تعطي الحق للطب بالقيام بالتجارب الموجهة والمكلفة لمد العمر حتى لو كانت النيات حسنة وهي ربما كذلك في أكثرية الأوقات.

من هنا يساهم الطب أحيانا وعمليا في تعذيب الانسان في آخر أيامه من دون قصد. عوض مساعدته على العيش بنوعية وسلام وهدوء خلال ما تبقى له من وقت. هكذا يترك المسن ضحية للتجارب الطبية والتجربة والتكنولوجية كما للغرباء. فيدفع الثمن المادي كما المعنوي والنوعي.

في الحقيقة، طبيعة بل دور الشيخوخة تغير. في الماضي، كان للمسن دورا كبيرا أي حاميا للتقاليد والعادات والتاريخ وبالتالي وجوده في المنزل «بركة». كان هنالك احتراما كبيرا للمسن من قبل أفراد المنزل بل من قبل المجتمع ككل. يقفون عندما يدخل الى مكان ما ويتكلمون معه باحترام ومحبة ويصغون الى نصائحه. كانت كلمته مسموعة حتى عندما كان يسأل المرء عن سنه، يبالغ به لفرض بعض الاحترام. أما اليوم فالعكس صحيح. أي يحاول المرء تصغير سنه لأن احترام المسنين أصبح مفقودا في عالمنا والمسن أصبح في العديد من الأحيان عبءا على المنزل وأفراده ليس فقط ماليا بل انسانيًا اي يقيد الحريات الاجتماعية. في الماضي، كان يكمل الانسان حياته مع أفراد عائلته الذين يهتمون به حتى آخر أيامه. أما اليوم، فطبيعة الحياة وعمل الجميع يفرض على المسن أن يعيش بمفرده مع المرض أو في مراكز العناية المتخصصة وليس مع العائلة التي يعمل كل أفرادها لتأمين الدخل الكافي للأسرة.

مساحة المنزل تدنت بسبب التكلفة والصيانة. وبالتالي لم يعد ممكنا استقبال العدد نفسه. تغيرت الحياة دون شك، علما أن لكل تغيير ايجابياته وسلبياته ولا بد للانسان من أن يتأقلم معه الى أفضل الحدود الممكنة.

تغير دور المسن في المجتمعات أيضا بسبب التطور التكنولوجي. عندما نريد معلومة ما، كان المجتمع يسأل المسن بسبب خبرته وحكمته ومعرفته. أما اليوم عندما نريد معلومة، نلجأ الى الحاسوب والانترنت أي الى الذين يتقنون التقنيات الجديدة وهم في أكثريةهم من الشباب والشابات. لا شك أن امتداد العمر المرتقب غير طبيعة العلاقات في المجتمع وخصوصاً بين الشباب والمسن ربما الى غير رجعة. في الماضي، كان الأهل يشرفون على حياة الأولاد دون حدود زمنية ويساهمون في تأمين الاستقرار والنصائح والحماية الاقتصادية ضمن الامكانيات المتاحة. وبالتالي يبقى عامل الارتباط قويا حتى آخر الحياة. أما اليوم، فيخرج الشاب من المنزل بعد سن الرشد ليعيش مستقلا في غرفة أو شقة ويواجه مخاطر الحياة وتحدياتها بمفرده.

في الماضي، كانت تنتقل الأصول من الأهل الى الأولاد في آخر العمر أو بعد الوفاة بعد القيام بحصر الأثر و ثم توزيعه عليهم. أما اليوم، فيجري نقل الأصول أو بعضها خلال الحياة ربما تهربا من ضرائب الأثر الباهظة أو ربما بسبب الحاجة المادية التي تواجه الأولاد في بداية حياتهم المهنية المستقلة. بسبب امتداد العمر أيضا، تنتقل المادة في العديد من الأحيان من الأولاد الى الأهل اهتماما بهم في الرعاية والتطبيق والعناية الكاملة المكلفة.

متفرقات

الدماغ يحلّ بعض الامور العالقة

اقترحت دراسة جديدة فرضية أن الدماغ يقوم بعملية تعلّم تتضمن تثبيت بعض الذكريات ومحو البعض الآخر أثناء مراحل النوم المختلفة. ويفسر ذلك توصل الدماغ إلى حلول لبعض الأمور والمشاكل التي يواجهها الإنسان ولا يستطيع التوصل إلى قرار بشأنها خلال اليقظة. حيث تساعد عملية الحو والتثبيت على إعادة بناء الوصلات العصبية. ومن ثمّ تقييم الأمور أثناء الراحة.

ويشغل نشاط الدماغ أثناء النوم الكثير من الباحثين في مجالات علم الأعصاب ووظائف الدماغ خلال العقدين الأخيرين. وقد وجدت الدراسة الأخيرة التي نُشرت في دورية «نيتشر كومينيكيشن» أن الدماغ يستطيع توصيل بعض النقاط العصبية أثناء النوم. خصوصا أن الوصلات العصبية تستعيد مرونتها خلال ساعات الراحة. ما يمكنها من القيام بنشاطها على نحو أفضل.

وخلال الدراسة التي أجريت في جامعة باريس ديكارث تحت إشراف

غيّرت العولة كليا طبيعة العلاقات بين الأجيال وجعلت المادة تدخل أكثر في هذه العلاقات. ربما على حساب المحبة البريئة. فالعولة وتحديات العمل يفرض على الأولاد، ذكورا ونساء، التركيز الكامل على التحديات للنجاح في سوق العمل المعقدة والتنافسية. سوق العمل اليوم لا ترجم خصوصاً وأن المنافسة أصبحت دولية وليس محلية فقط كما في الماضي. من ناحية أخرى، التغييرات الحاصلة منذ زمن ربما لا تزجع الشباب والمسنين لأنها أعطت حرية أكبر للفريقين في زمن أصبح خلاله تقييد الحريات مكلفا ماديا ونوعيا. رغم هذا التغيير الكبير، لن تكون هنالك عودة الى الماضي لأن الحاضر لا يزجج وان يكن مكلفا أكثر. هنالك اليوم تعلق كبير بالاستقلالية والحرية اللتين لم تكونا موجودتين في السابق. وهذا التعلق واضح عند المسنين والشباب من رجال ونساء. أخيرا، لا يمكن معالجة كل مشاكل المسن. انما يمكن جعل تلك الفترة تمر بنوعية أفضل. فللمسن الحق في العيش بنوعية حتى لو كانت المدة قصيرة. النوعية أهم من عدد السنوات. وهذا ما يتفق عليه المجتمع علما أن الطب والعلوم التجريبية والرعايات الاجتماعية والتكنولوجيا ربما لا يناسبها ذلك. فالمسن لا يخاف من الموت بل من نوعية الحياة التي يعيشها قبلا. أي خسارة السمع والنظر وحرية التنقل وغيرها والتي تؤثر جذريا على الرغبة في العيش. دور الطب الحديث يجب أن يركز على نوعية الحياة وجنب العذاب قبل الموت، وليس على محاولة اطالة العيش مهما كان الثمن ومهما كانت التكلفة والنوعية. محاولة اطالة العيش تؤدي أحيانا الى تقصيره. لأن المسن لا يتحمل في العديد من الأحيان كل التجارب التجريبية والطبية التي تعطى له. الهدف هو تأمين الحياة الجيدة النوعية حتى الموت.

البروفيسور توماس أندريون تمت مراقبة أنشطة الدماغ لـ ٢٨ شخصا أثناء النوم. وتم رصد أنشطة الوصلات العصبية التي كشفت عن قيام الدماغ بمحو بعض المعلومات وتثبيت البعض الآخر. وإعادة توصيل بعض الأمور من جديد. ما يساعد على إيجاد حلول للمشاكل العالقة.

